جماليات الشعر الجزائري الثوري

الشعر الجزائري–الشعر الثوري–الصورة الشعرية–الايقاع الداخلي والخارجي

إعداد

الدكتور مجيد قري

أستاذ محاضر قسم (أ)

جامعة خنشلة – الجزائر

الدكتور زهر الدين رحماني

أستاذ محاضر قسم (أ)

جامعة برج بوعريريج – الجزائر

The aesthetics of Algerian revolutionary poetry

Dr KARI Madjid
Maitre conférence (A)
Faculté des lettres et des langues
Université khenchela -Algérie

Dr RAHMANI Zahreddine
Maitre conférence (A)
Faculté des lettres et des langues
Université bordj Bou Arreridj-Algérie

Algerian poetry - revolutionary poetry - image poetic - internal and external rhythm

الملخص:

يتناول البحث الشعر الجزائري الذي كان لسان الثورة الجزائرية وسجل أحداثها بجزئياتها وتضاريسها وعكس من شاركوا فيها بطبائعهم وتنوعاتهم، وساير بهم نبض الثورة، وآزر الشعراء بها صوت الرشاش لتكون الكلمة والقصيدة سوطا آخر ينال من الفرنسيين، وصوتا وترجمانا للثورة والثوار وأهازيجهم وأناشيدهم وآلامهم وأمانيهم وأحلامهم بغد ما بعد الثورة، فالجزائري يستمد بقاءه من الوطن الذي يحي فيه وبه، وهو الذي يلهمه الثورة والتمرد ويعزز فيه ذاتيه، فبدماء شهدائنا كتبت بحوثنا.

وفي هذه الورقة أبرز البحث أن الشعر الثوري الجزائري حقق ذاته الأجناسية نتيجة اكتمال عناصر الشعر الكلية، الوزن والقافية، والايقاع الداخلي والخارجي، الصورة الشعرية، واللغة التي تسمو عن اللغة نفسها واخراجها من نمطيتها المعهودة وتتنوع مع تنوع تجارب الشعراء وتصوراتهم.

Abstract

Research of Algeria deals with the poetic, which was the language of the Algerian revolution and recorded its events with its particles and their topography, and reflected those who participated in it with their masterpieces and variations, and guided by the pulse of the revolution and the poet's hand with the sound of the sprinkler to be the word and the poem is another medium obtained by the French, and the voice and translation of the revolution and the revolutionaries and their songs and their songs and their pains and hopes and dreams,after the revolution.the Algerian derives his survival from the homeland in which he lives, and he is inspired by the revolution and rebellion and strengthens his self, with the blood of our martyrs, we wrote our research. In this paper, the research highlighted that Algerian revolutionary poetry achieved the same aesthetic as a result of the complete elements of the total poetry, weight and rhyme, internal and external rhythm, poetic image, language that transcends the language itself and remove it from its usual style and vary with the diversity of poets' experiences and perceptions.

مقدمة

ينفرد الشعر بظاهرة الرفض ويرتبط بها ارتباطا شديدا، فيجد الشعراء أنفسهم أما الواقع الاجتماعي وتتقاذفهم هموم الحياة فينزعون للتعبير عن آلامهم وآمالهم بكل رفض وغضب وسخط، ومن هنا تتولد ابداعاتهم الشعرية متأججة بنيران الثورة والرفض، وقد تعددت المصطلحات، فكان أدب السجون وكان أدب اليقظة، وكان الشعر السياسي الثوري والتحرري، وكان شعر الثورة... لكن تبقى الدلالات بين هذه المصطلحات متقاطعة وأحيانا متطابقة، وقاموسها المعجمي يكاد يغدو واحدا موحدا. ويعد شعر الثورة نمط من الأدب عرفته الأمم على اختلاف بيئاتها وأديانها أملاه واقع الاضطهاد والتسلط، فأصبح ترجمانا إنسانيا تقاس به وطنية الشعوب، ويعرف به مستوى تسلط المستبد وتحكمه في قطيع الشعب الذي يرضخ تحت إمرته. وثبت للشاعر إحساسه وقدرته على التعبير عما تحس به الجماعة، فكان بذلك ناطقا ونائبا ينوب عنهم، ينقل همهم بشاعرية تفوق بداهتهم في الكلام وقوتهم على الوصف. آملين فيه الأمانة في نقل الإحساس ونقل التأثير معا. وهو الهاجس الذي سكن الشعراء وجعلهم يحسون أكثر ما هو منتظر منهم، ويمليه عليهم واقع شعوبهم وما يعانونه من جور وظلم وعدم إنصاف.

إن المعاناة الشديدة التي عانتها هاته الشعوب – والشعراء أفراد منهم –، جعل شعرهم باعتبار الأدب مرآةً عاكسة للمجتمع، ناله بعض ما نال هذا الشعب، فتأثرت مضامينه وبناءاته، وتنقل الأدب بين قوة وضعف، وحالته كحالة الشعب يأخذ منحناه التصاعدي والتنازلي. ولعّل حظ الشعر. مجال دراستنا في هذا البحث . كان كبيرا؛ فقد عرف الشعر الجزائري أقصى درجات تدنّيه أيام الاحتلال الفرنسي الذي حاصر كل ما هو ثقافة عربية إسلامية، وجعلها تلوذ ببقايا الزوايا والتكايا والربط والكتاتيب المهجورة وأحيانا يلوذ بالمقابر والمزارات للأولياء الصّالحين، فتدنّى مستوى الكتابة الشعرية في هذه الفترة وجعلته يدور في أغراض دينية صرفة. فإذا هو لون واحد يتّجه إلى مدح المشايخ والأعيان، ويتأسّى بمآثر الأولياء والصالحين، وانشغل بتهويمات صوفية منحطّة مع التوسّل من الأذى والنقمة الاستعمارية بآل الرسول وجاهه الكريم.[1]

كلّ ذلك وغيرّه تمّ غالبا بتوجيه من المستعمر ومباركته وتخطيطه، وقد ساير بعض الأذناب ممّن ينسبون أنفسهم إلى الشعر مرامي أسيادهم الفرنسيين فراحوا يمدحونهم ويمتنون بأفضالهم عليهم وعلى الشعب!. (وقد زاد من تقلص دوافع الإبداع الشعري وقوف بعض سدنة الدين المتزمتين الذين لم يتورعوا في إصدار الفتاوى القاضية بتحريم الشعر والنهي عن ممارسته بصفته ضربا من ضروب التلهّي عن ذكر الله، فهو منهيّ عنه شرعا بحسب اجتهاداتهم الباطلة، ومن هناك فهو يلهي على ما هو أهم في حياة الناس كتعلم الشريعة والأخذ بالأصول.)[٢] لكن هذا المطمح الفرنسي المكيد رغم نيله من الكثير من مقومات هذا الشعب، ونجاحه في سياسته التجهيلية الرامية إلى اقتلاع الجزائريين من جذورهم. إلاّ أنّه لم يتأت له النجاح الكامل لأن الأقدار أبقت رجالا بقوا مشدودين إلى أصولهم متشبثين بها، مداومين على تذكير بني جلدتهم رغم ما لاقوه من أساليب الرّدع والمنع والتشويش. ومن أولئك نجد أعضاء جمعية العلماء الذين لعبوا دورا هامّا للسمو بالعربية والمحافظة عليها ممّا جعل الأديب الكبير "أحمد زكي مبارك" يشيد بدورها في العديد من المرّات و(بالمستوى الرفيع الذي بلغته العربية في الجزائر تحت رعاية جمعية العلماء المسلمين، فرأى في غزارة صحفهم ومجلاتهم متعة وغبطة تبعث على الفخر والاعتزاز). [٣]

إن الحركة الإصلاحية في تلك الفترة تبنت كثيرا من آمال وآلام هذا الشعب وحاولت معانقة طموحاته وكانت في كل مرّة تدعوه إلى التشبث بقيمه الدينية الروحية. وباعتبار الشعر هو الأقدر على التعبير عن تلك الطموحات، فقد وجد شعراء كثيرون في العقد الثاني من القرن الماضي خاصّة (وصفوه بدقّة، وسجلوا ما انتشر فيه من خرافات، وأن الابتعاد عن الدين والأخلاق الإسلامية والانغماس في اللذات كانت كلها سببا في تأخر المجتمع، وأحسن من يمثل هذه الفترة الشاعر " عمر بن قدور"). [٤]

لقد عاب الكثير من النقاد على هذه الفترة إغراقها في المباشرية والخطابية وتبنّي القوالب الجاهزة والتعابير التراثية المستهلكة وأحيانا المبتذلة، إلاّ أنّهم لم يخفوا أنّ هاته الأشعار عكست بصدق وصوّرت حالة المجتمع والدين، وحالة السخط التي كان يعيشها الجزائري وكثر فيه (الحديث عن الفقراء والدعوة إلى الإحسان إليهم، والرّثاء للحالة التي وصلت إليها الجزائر في أسلوب رومانسي حزين، ونبرة تعبّر عن الحسرة والأسى لهذا الواقع

المؤلم.)[٥]. وسأكتفي ببيتين للشاعر " عمر بن قدور" الذي يعكس تلك الخطابية وتلك النبرة، ولكن يعكس كذلك الصدق تجاه الوطن والدين والإنسان. يقول:

(أفٌّ لهم شدّوا عن الحق جهرةً وجنوا عن الإسلام وهو عتيقُ

ولذا تراني من شديد تذمّري أبدا أصيح وفي الفؤاد حريق)[٦]

إذن فقد احتضن الشعراء بعض همّ شعبهم، وربّما شغل بعضهم عمق الجرح وفظاعة المأساة واكتفوا بالوصف، ولم يحاولوا السمو بأساليبهم الفنية حتى ترقى وتتساوى فيه روعة الوصف مع روعة العبارة وحسن الصّورة. ولكن مع ذلك وفي فترات لاحقة حاول بعضهم بما تأتّى لهم من اطلاع على بعض التراث العربي الذي كان يصلهم من اتصال الجزائريين من خلال البعثات العلمية بالمشرق، وكذا من خلال ما تمّ لهم في بلدهم من تعلّم لمبادئ الدين والعربية خاصّة في مدارس جمعية العلماء المسلمين. كان لهذا وغيره دور لدى البعض لتحسين أدواتهم التصويرية والتعبيرية، خاصّة أثناء فترة الثورة...ولكن بقي مع ذلك الأسلوب تابعا يُسَيّرُه المضمون والمعنى!. (فصار الشعراء يغنّون للحريّة والسلام والمحبّة والكرامة لا لشعبهم فحسب وإنّما لكل شعوب العالم ولا سيّما المقهورة منها. فاحتك شبابنا بهم فإذا بأدبنا يخرج بدوره من جموده. فاستطاع أن يتحرّر من قوالبه القديمة ويخطو خطوات شاسعة في ميدان التجديد، ولكن مع حرص شديد على الوضوح في الصورة الشعرية واجتناب الإيغال في "الرمزية").[٧]

وقد كان بعض البصيص من الأمل في غدٍ شعري مشرق مع إيراد "محمد الهادي الزاهري" لكتابه " شعراء الجزائر في العصر الحاضر " والمنشور في جزأين تباعا عام ١٩٢٦ و١٩٢٧ بتونس. (وأنت تتصفح تراجم شعراء الجزائر في كتاب الزاهري تستوقفك مع كل قصيدة تلك الضلالة السوداء التي تتسدل على أعين غالبية الشعراء، كما تسمع حشرجة تخنق أصواتهم المبحوحة بالألم. وقد عمّت هذه الظاهرة السوداوية أكثر من عشرين شاعرا لا لشيء سوى كما يقول " الزاهري " أن الشعر هو الشعور، وأبناء الجزائر شعروا جميعا بهذا الألم، فما بالهم لا يكونون شعراء أجمعين). [٨]وهؤلاء الشعراء وغيرهم الذين جاءوا عقب الحرب العالمية الثانية وواكبوا حركة الإصلاح كان لهم دور جبّار في مواكبة أحداث الثورة ونقل وقائعها والتفاعل مع كثير من جزئياتها.

وكثيرا من شعر مرحلة الثورة ظل متفاعلا مع موسيقى الشعر العربي رغم سطحيّته أحيانا وابتعاده عن ذوق الشعر الذي يأبى التصريح والتقرير ويُحبّذُ الإيحاء وحسن التصوير واستخدام اللغة الشعرية المنزاحة. جلّ شعر هذه المرحلة جاء تقليديا عموديا وفق بحور الشعر الخليلية، ناهيك عن بعض المحاولات الجادة الأولى التي نذكر على رأسها قصيدة (طريقي) والقصائد الحرّة لأبي القاسم سعد الله، وصالح باوية في أغنياته النضالية. [٩] والشاعر في خضمّ أحداث الثورة، راح يصيد لنا اللحظات المأساوية ويتفاعل معها لنتجاوب معه وفق ما أوتي من طرق صوغ الكلام وبنى شعرية تأتّت له من خلال مطالعاته. و(يظهر لنا ذلك في الحوار بين الشاعر وذاته مازجاً فيهما كل التناقضات لدرجة انعدام اللحظة الراهنة).[١٠]

يصعب على أي ناقد عندما يؤرخ لمرحلة أو ملمح فني أن يحيط بجميع الظواهر، لكن قد لا يصعب عليه الترجيح قصد الدّراسة والخروج بخلاصات تخدم بحثه. وسنحاول نحن أنّ نحصي بعض اللحظات التاريخية في تاريخ الثورة وكيف تناولها الشعراء الجزائريون الذين عايشوها وصاغوها. فهذا الشاعر "صالح خرفي" يتحدّث عن وفاء حبيبة لحبيبها، ويتحول الحبّ ليمتزج بالثورة...غدو وعدا مؤجلا، تؤجله الحبيبة إلى ما بعد الاستقلال واندمال الجرح وخروج مغتصب الأرض الجاثم على الأنفاس:

(يا حبيبي لم أخن عهدي ، ولا خنت هواي
غير أن الحب أمسى ثورة بين الحنايـا
لك حبيّ في ذرى الأطلس في تلك الروابي
لك حبي يوم تعلو بسمة النصر ثرانـا
ويذيب الليل ، والآلام بحر من دمانـا
سوف ألقاك مع الليل وأفراح البشائـر
سوف نبني عشا في ظل الجزائـر) [١١]

وتثير ذكرى الثامن ماي ١٩٤٥ الشاعر أبو القاسم خمار ذات ١٩٥٥ فينشد قصيدة بعنوان (دعاء الوطن)، تتمازج فيه الذكرى مع ويلات ما يعانيه الجزائريون، فيثور وتدمع عيناه متوعّدا هذا الظالم الذي طال أمد ظلمه:.

(وطني نداؤك قد أثـار حفيظتي وارتجّ منه القلب كالتّيـار

ذكراك في اليوم البغيض بأرضنا يوم الرزية يوم الاستعمـار
ذكراك في شهر المجازر مرّة تنمو وتخرق من دمي وشراري
ذكراك يا وطني تفجرنا دمـا وتحضنا فنثور كالأقـدار
الانتقام الانتقام شعـارنا والموت للمحتال الغدّار) [١٢]

فرغم تقريرية الخطاب، إلاّ أنّ النص مفعم مليء بمشاعر الغضب والرغبة في الانتقام وما زاد في حدّة الألم هو تكثيف الشاعر من توظيف المدّ ودلالاته الإيحائية التي تخدم كثيرا مقام الألم والحسرة!. و(لقد كانت أحداث الثورة السياسية تستحوذ على اهتمام الشاعر وتستحثه على أن يواكبها فيلجأ إلى الطابع الحماسي فيفوّت عليه . في أغلب الأحيان . الاهتمام بفنه، والنظر إليه بروح ناقدة وذوق متأمل، فالمضمون أوّلا والفن ثانيا).[١٣] وهذا ينطبق على كثير من نماذج النصوص التي سنوردها لاحقا. فالسمات نفسها من قصد المعنى مباشرة واستعمال بعض التعابير المستقاة من التراث العربي الشعري القديم، وقوالبه الجاهزة نجدها حاضرة في كثير من النصوص منها قول الشاعر (حسن حموتن) وتفاعله مع الإضراب الذي شنّه الشعب الجزائري في أول يناير ١٩٥٧ والذي دام أسبوعا ولقي استجابة جماهيرية عظيمة يقول: .

(حَدِّث خليليّ عن مدى الإضراب وانقل صداه إلى ذوي الألباب
إضراب أسبوع وهل سمع الورى في العالمين نظير ذا الإضراب
نقلته أمواج الأثير إلى المـلا في الخافقين في منتهى الإعجاب
يا يوم أصبحت المدائن والقوى موقوفة الأعمال والأسبـاب
فيه الجزائر أضربت عن شغلـها إلاّ على الهيجاء والإرهـاب
وبه الجزائر أثبتت لفرنسـة أنّ الجهاد على هدى وصواب)[١٤]

وفيها نلاحظ استعماله لعبارات (خليليّ، يا يوم، الهيجاء...) وهي إسقاطات مباشرة لتعابير تراثية قديمة تداولها الشعراء القدامى.

الإضراب ذاته أثار شعراء آخرين فأنشد "أبو بكر بن مصطفى بن رحمون" قائلا:

(إن الجزائر أعلنت إضرابـها ولسان ثورتها بين جوابـها
أمضت ثمانية من الأيام لـم تفتح إلى أعمال أعتابـها
لم تخش صولة دولة قد صوّبت لأذى الجزائر جيشها وحرابها

.....

الحق يأبى أن نخاف عذابـها ونَهاب في إضرابنا إرهابـها) [١٥]

وبذات التحدي ونبرة الصمود يقول في موضع آخر:

سنبلغ رغم آناف الأعـادي مطامحنا ونحظى بالمـراد

سندرك ثأرنا عما قريـب بكل مغامر وبكل فــاد

لتحرير الجزائر من عـداها يرى طعم الشهادة كالشِهاد) [١٦]

أما شاعر الثورة الجزائرية "مفدي زكريا" الذي سخّر قلمه، وكلماته التي كانت سوطا على فرنسا فقد تعامل مع الثورة والقضية تعامل الأم مع صغيرها الذي يحتاج منها الوقت جلّه والاهتمام كلّه، فراح يخلّد كل ما تعلّق بهذه الثورة وبأصدائها وأنواعها وبشائر النصر التي كانت تحملها. يقول "محمد ناصر" في هذا الشاعر الرمّز:(وعند بعض الشعراء الكبار مثل مفدي زكريا يصبح توظيف القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي أداة من أدواته التصويرية والتعبيرية في قصائده الثورية لا سيما التي كتبها وهو سجين بربروس والبرواقية والحراش).[١٧] فلم ينل منه لا السجن ولا التنكيل، ولم يعد يؤمن إلاّ بالله والجزائر؟. فلغة النار والرصاص والصفائح الوحيدة التي يفهمها المستعمر، يقول :

(لغة القنابل في البيان فصيحـة وضعت لمن في مسمعيه صمام

ولوافح النيران خير لوائــح رفعت لمن في ناظريه ركـام

والحق والرشاش إنْ نطقا مـعاً عَنتِ الوجوه وخـرّت الأصنام) [١٨]

هذا هو المنطق الذي يقدّسه الشاعر، ويروّج له من خلال أشعاره حتّى ولو كان سجينًا مكبّلا، ففي الزنزانة رقم (٦٩) بالسجن نظم قصيدته التي كانت جوابًا لـ"غي مولي" الذي دعاه للانتخاب في شتاء ١٩٥٨ يقول :

(أي معنى لمجلس دون حكم وطنيّ على يديه القضـاء؟

نحن نبغي استقلالنا..حرفـوه مااستطعتم.. إن صد عنه الحياء

لقبوه : تكافلاً.. وارتبـاطاً ما عساها تهمّ الأسمــاء

إن جهلتم طريقه.. فعليـها «لافتات» .. حروفها حـمراء؟

اعتراف .. فدولة.. فسـلام فكلام .. فموعد .. فجـلاء) [١٩]

وثمّ شاعر آخر من العيون الساهرة على هذه الثورة وعلى دوائر اشتعالها بدوام تفاعل الآخرين مع ما يعانيه الشعب الجزائري من مرارة وعسر. يروي قصّة فدائي وزوجته الفدائية اللذين يضحيان بشبابهما وحياتهما في سبيل الجزائر ذات ديسمبر ١٩٥٦، هو "أبو الحسن علي بن صالح" الذي يقول:

(مشى في البيت يقطعه ذهابا على مهل ويقطعه أيابا
يقاوم في سريرته اضطراباً ويمسح فوق جبهته اكتئابا
وما سبب الكآبة والمصادر
فتمتم : ربّ عونّاً إنّ قلبي تقطّر أو يكاد لفرط حبّي
حنان رقّة طغيا بِلُبِي أمامي في الكرى عتبي وحبي
بدون كفاله وبدون ناصر
إذا نادى : أبي ؟ فمن المجيب ؟

.....

تململت القرينة واستفاقت على نجوى يتمتمها، وقالت:
أحرب تستعد لها ؟ وراحت تجرّ ذيولها، وقد استحالت
لبؤة ضيغم ذات المقاصر
فقالت : يا ابن عمّي كيف ترضى مفارقة العيال ونحن مرضى
وصوت الأهل كنت تراه فرضا فما لك قد تركت اليوم عرضا؟
ورمت فراقنا والجدّ عاثر
عزمنا أنّ نضحّي بالعوالي وبالأموال والمهج الغوالي
نضحي بالنساء وبالرّجال ونبذل كلّ مرتخص وغالي
لتحرير العروبة في الجزائر.
لتحرير الجزائر بعت نفسي سأنقذها من استعمار رجس
أحررها من الغزو الفرنسي أموت وإنني ماض لرمسي
ورمسي رمز تضحيات ثائر.
وداعا واصبري صبرا جميلا وإياك البكا ودع العويلا
فإنّ أمنا دربا طويلا بغير العزّ لا نرضى بديلا

عقدنا العزم أن تحيا الجزار)[٢٠]

ويستمر الشاعر في جزئيات هذه القصة الشعرية، ونحس معه ببعض ألم "ابن الرومي" قديما، وبعض دقّة ورقة الوصف في الشعر الاجتماعي التي يمتلكها "معروف الرصافي" حديثا، ليصل إلى بيان أن الزوجة لم تكن أقل وظيفة من زوجها، بل لقد أعدت العدّة لهذا اليوم وقالت:

(هنا فتحت حقيبتها ، وكانت أعدتـــها مجهزة ودارت
لتلبس بدلة زرقاء، وراحت تُريه مسدّساً ومدى ، وقالـت:
أنا بنت الفدا بنت الجزائر)[٢١]

أعدّا عدّتهما وحملا وليدهما الرضيع وصاحا: "بالفدا تحيا الجزائر".

وهنا يبرز الشاعر تهافت الكل وتضامنه وجعل النفس رخيصة في مقابل نفاسة الوطن وعلو مقامه!.

(إن حب الوطن في الثورة الجزائرية الكبرى نمّته الأحداث، وعمّقته المآسي حتى صار مقدّسا إلى أقصى درجة القدسية، ولذا صار الشوق إلى الوطن عاطفة سامية لأنّ الوطن لا يمثل التراب، فقط بل يمثل كيان الإنسان الروحي والمادي واستمراره في الحياة بل، إنّه رمز الحريّة والانطلاق) [٢٢] . وهذا التعلّق بالوطن قد يعكره البعاد والغربة فيشتد حنين الشاعر، وهذا الملمح عرفناه خاصّة لدى شعراء المهجر. وهذا شاعرنا "عبد الله شريط" وهو في باريس، يزوره طيف الوطن الذي لم يفارقه يوما ويزداد شوقه لأهله ولذكرياته ولتلك الربوع فينشد:

ظمئت إليك يـا وطـني وإنّني لفيك نفضت أوراق الشبـاب
وفيك تنفست أحـــلام قلبي وهزّت مهجتي ريح التصابي
ظمئت إليك يـا وطـني لأنّي غريب في جبالك والروابـي
غريب في بحـارك والفيـافي غريب في سهولك والهضـاب)[٢٣]

الظمأ نفسه لهذا الوطن الذي لا يضاهيه وطن، قد يحسّه السجين وقد حُرم من الاستمتاع بعبقه وروحه نحسه ونحن نقرأ "أحمد سحنون" عندما يقول: .

(وطني يا مهبط الوحي ويا فلك الحسن، ويا مهد صبايـا

يا نشيد المجد يا أغنية من أغاني الحب يا نجوى هوايا

يا سماء للعلى، يا ملتقى إخواني الصيد شبابا وصبايا)[٢٤]

وتبلغ مناجاة الوطن مداها ويزداد الشوق إليه حتّى يستولي على كيانات الشاعر:

(يا بلادي هواك نجوايا في سري وجهري ويقظتي ورقادي

طال شوقي إليك واشتدّ ما ألقاه من حرقة النّوى والبعاد

هل سبيل إلى اللقاء ، وهل للمعبد المد نِّف الحش من معاد؟

كل شيء نسيته يا بلادي وتلاشت أطيافه من فؤادي

غير ذكراك فهي تكمن في قلبي كُمون اللظى بقلب الرّماد) [٢٥]

فالوطن غدا ملهمًا، وكلّ شيء استحال وقودًا للثورة التي يجب أن لا يخفت لهيبها فالكلّ ينحني للوطن ويمجّد الشهيد ويشيد بالفدائي. والكلّ يغدو صوتًا وخنجرا (وهذا الشاعر عبد السلام حبيب يهتزّ لبطولة وشجاعة "محمد بن الصادق" الذي اغتال خائن الأرض والإنسان "علي شكال" وهو يقف إلى جوار رئيس جمهورية فرنسا "كوتي" :

خذها، ودمدم من مسدسه رصاص.

خذها فقد حان القصاص

الويل لك يا خائن الشعب الجريح

لن أستريح حتّى تموت

سأقتلك باسم الوطن ، باسم الجراح والرعفة

باسم الجزائر والنضال ، خذها رصاصة ثائر)[٢٦]

وكأنّ الثورة قد شحنت الكلّ، وأذهبت الرعب عنهم جميعا حتّى غدت الماردة "فرنسا" أضحوكة الجميع، لا يهابها إلاّ من يقتات من فتاتها أو من لم يصطل بنارها. يقول "أبو القاسم سعد الله":

(أقولها لفرنسا جلية كالصباح

إني كمين جديد لجيشك السّفاح

إنّي بعثّت إليك على زئير الرياح

على نذير الغناء على دوي السلاح

لقد عرفت طريقي ولن يرد جماحي) [٢٧]

ويقول أيضا بنفس النبرة والإصرار على الانتقام :

يا بلادا خضّب النصر ثراها

أوقد الشعلة فالكل وراها

كتلة لن يفصم القلم عراها

ثأرنا الدامي دليل لسراها

لا حياة لدخيل عن ترابي

أنا للأرض التي غذت شبابي

عشت فيها بمراحي ومصابي

كيف أحيا وهي في ظفر ناب!

إن جرحي راعف بالانتقام

ثائر للثأر محموم الصدام!..

لم يلن عزمي ، ولم تهدأ أضرامي

فأنا للثأر والثأر قوامي)[٢٨]

وكذلك الشاعر "صالح خباشة" الذي يعلنها عالية، ويقرّ بأنّه لا يعترف بالشهادة العلمية لأنّ ثمة شهادة في هذا الظرف تضاهيها وتجاوزها :

(ليس الشهادة صفحة تحظى بها إنّ الشهادة موتنا شهداء

لتكن معاهدك الجبال تدرسها أجدى وأرسخ في الحياة بقاء)[٢٩]

ولم يكن "محمد العيد آل خليفة" بمنأى عن الأحداث التي شهدتها الثورة، بل كان هو الآخر رافعا لعصا العصيان مرتديا لباس الوطنية، وكان قد طلب منه غير ما مرّة التصديق على مناشير الثورة إلاّ أنه آثر الوقوف إلى جانب إخوانه ليتجرّع معهم حلاوة الكفاح. وكِيلت له التهم للنيل من عزيمة الكلام لديه، وسجن وعذّب، وكانت آخر تهمة خطيرة رُمِي بها هي اتهامه بأنه كان وراء حادثة إعدام مستوطن فرنسي من قبل جبهة التحرير الوطني، وانتهت بفرض الإقامة الجبرية عليه بمنزله ببسكرة عام ١٩٥٥ واستمرت حتّى الاستقلال. وعلى مدار فترة الثورة وقبلها دأب على مؤازرة الثوار و(إن خاصيّة محمد العيد آل خليفة مثلا هي هيامه بالوصف، لكن شعره الوصفي ليس صورة وصفية خارجية باهتة، ولكنّنا نجده يأتي

ممتزجا بوجدان الشاعر وعواطفه الداخلية وتهويماته النفسية القلقة باحثا عما يَسُدُ الفراغ في روحه)[٣٠].

وقد شاع عنه رغم اتجاهه التقليدي أنّه مال في كثير من أشعاره لاستخدام الرمز ولكنّه كان استخداما غير مغرق في الغموض بل (مفهوماً واضحاً قريب الإشارة ظاهر الأهداف).[٣١] وقد اتجه إلى استخدام الرمز التراثي والديني واستفاد من القصص القرآني وامتطى صهوة بعض الشخصيات والأبطال وحمّلها أعباء وأوزار شعبه وخدم بها راهنه وقد وظف (حياة بعض الأعلام القرآنية للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم والإفصاح عن أفكارهم واتخذ هذا التعبير شكل الرمز والإشارة ، والإحالة.. سواء كان هذا الرمز نبيا أم رسولا أم مناوئاً للصالحين أم غير ذلك، محاولة منهم توجيه المجتمع إلى الأصلح وقصدًا إلى التغيير والخروج من حال التدهور والتفكك والانحلال إلى حال الرقي والازدهار).[٣٢]

ومن تلك الاستخدامات الرمزية دمجه بين رمز (طور سيناء) وما حدث فيه من تكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام، وأن للمكان رمزيته الخاصّة و"الأوراس" وما يحمله من دلالات وإيحاءات رمزية مميّزة:

(إنّما تربة الجزائر مهـــد عبقري لثورةالعظمــاء

وهي أرض الإسلام ذي المبدأ السمـ ح والأرض العروبة العربـاء

ما شككنا والشعب فيهم كليــم أنّ نار الأوراس من سينـاء

حيث صارت طور التجلّي وصرنـا كلنا حولها من الكلمــاء[٣٣]

و(رغم الطابع الخطابي الذي يطغى على هذه الأشعار، وعلى جوها العام الذي يخضع للمناسبات. فالمناسبة هنا ليست للكلام بل للسلاح، حابسًا أنفاسه بانتظار عذاب الحروف التي تولد، مسكبا عواطفه الجياشة المتأجّجة، مبدّدا الغشاوة عن عيون الناس، ولذلك تميزت الأشعار في هذه الفترة بروح التحدّي والصلابة، مغنيا بإصرار وعناد المستقبل وسط تفاؤل وبهجة وصبر)[٣٤].

وقد حقّ للشعر أن تكون له تلك الوظيفة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية ، وكان أداة ووسيلة دافع بها الشعراء عن قضايا الوطن ووقفوا بها إلى جانب الشعب، وبحثوا للمجتمع عن مخرج يدله على طريق النهضة والتقدم، ويعبّد لهم الطريق للمستقبل، وعتبة ذلك الأولى كشف مزاعم المستعمر والنيل من طول مكوثه جاثماً على أنفاس الوطن [٣٥] وقد كان الأمل

في المستقبل والثقة بتحقيق النصر هما عزاء معاشر الشعراء يدفعهم في ذلك الأمل والعمل والتضرع إلى الله بالدعاء. يقول محمد الأخضر السائحي:

(يا مالك الكون ما للظلم يفنينا أَمَالَنَا حق عيش في مغانيـنا؟
رحماك ربّي لقد هالت مآسينا واشتد في الجور ظلما من يقاضينا
أما تمّر بنا الأيام دون أسى يجدّد الحزن في أعماق سالينا؟). [٣٦]

و(كذلك فإن الشعر رغم ما عاقه من أن يخطو خطوات جادة في طريق التطوّر، فإنّه يمكن للباحث أن يسجّل فيه ثلاث اتجاهات من حيث الأسلوب والموضوع معاً: الاتجاه إلى الرمز)[٣٧] والاتجاه إلى الرومانسية ثم الاتجاه إلى الواقع. وهذه الاتجاهات في الواقع تتداخل بعضها في بعض، بل قد نجدها تختلط جميعا في القصيدة الواحدة، فلم يكن وراء هذا الاختلاط فكر منظم أو مدرسة لها هدف معيّن، وهو من أَثَر البيئة الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية، فالشاعر موزَّع بينها جميعا، وليس أمامه وضوح في الرؤية حتى يلتمس سبيلاً خاصّاً أو يدعو إلى مذهب معيّن أو مدرسة خاصة .[٣٨]

يؤكد "عبد الله ركيبي" أنّ تبنّي بعض الشعراء الجزائريين لتوظيف الرمّز في تلك الفترة لا علاقة له بالمدرسة الرمزية التي ظهرت في فرنسا أواخر القرن الماضي، وإنّما الرمّز وجد باعتباره أسلوبا عبّر به الشعراء لظروف ثقافية بالدرجة الأولى، فهو يشبه استخدام الأقدمين للغزل الصوفي. ولكن "ركيبي" يرى بأنّ هذه الاستخدامات قليلة أوجدتها النظرة التقليدية التي أوجدت الرمز، وكذا الوضع السياسي آنذاك، والقصائد التي تتحدث عن الحرية وظفت مثل هذه الرموز. وإذا اعتبرناه رمزا على غير مذهب الرمزيين، فإنّ هذا يرجع إلى أن الشاعر يفسّره في بداية القصيدة أو أثناءها أو آخرها... فهم إذن لا يعانون من إحساس غامض أو من عجز في التعبير عن مشاعرهم مثل الرمزيين، وإنّما هم يتصوّرون قضية معيّنة ويعمدون إلى الغزل.. ومن ذلك تغزّل "ابن سلام القسنطيني" بالعلوم والآداب وترك المحبوبة الحقيقية. ويستمر في الغزل بالعلوم ورياضها وكأنه يخاطب فتاة يحبها ويعشقها حتى يصل إلى الغرض حيث يفسّر غزله هذا ورمزه فيقول:

(ودعْ غزلاً للغانيات فطالـما سَلا عن وِصال الغانيات نبيل
قد يدني الآداب، والعلم مقصدي ولا زلت في نيل المعالي أجول

بل أنّه يصرّح بهذا في خاتمة القصيدة، وهي سمة من سمات هذه القصائد الغزلية.. كما أن البيئة كانت في صراعها مع الاستعمار والشعب يعاني من الظلم والعبودية، لا تسمح بأن يتغزّل الناس في المرأة. فكان الشاعر خوفا من هذا الجمهور يبادر إلى تفسير رمزه فيقول:

لست أهوى غادة حسّنا ولا شُرب كأسٍ مع نديم أو وتـر

إنّما هذى بلاد طالمـا أنجبتْ شهما وواست في الصغر (٣٩)

إذن بهاته النصوص التي أوردناها، أبرزنا بعض مقصديه المتن الشعري الجزائري الذي سيضل نبعا لا يجف ومعينا لا ينضب، شعرا عربيا عروبيا وقوميا ووظيفيا وبؤريا ومقاوما، ورافضا لواقع البؤس والشقاء وكل أشكال العذاب الإنساني التي فرضها المستعمر الفرنسي، هذا الجو الذي اشتد به نبض شعرائنا فأضاءت كلماتهم المقاتلة ليل الواقع المرير وزرع بلسما على جراح وطننا الحبيب، فحافظ شعرهم على طراوته ونكهته الوجدانية ومضامينه الفكرية والإنسانية، وقد ساعدهم على ذلك النفس الشعري القوي الذي لا يخمد، والروح التجديدية العنيدة التي لا تقهر ولا تخبو نارها، فأثبت المتن الشعري الثوري الجزائري قوته وشبابه وحصانته، وأنه بإمكانه اكتساح المنابر وزرع بذور التغيير والتحول، كما يبقى النص الشعري الجزائري ساحة غير مستباحة لما تلجها جميعها أقلام النقد والدارسون مدعوون لإنصاف هذه المتون، خاصة أن صدى الثورة الجزائرية لا يزال يصدح به في الآفاق، ويجب عدم الاكتفاء بصداها الرؤيوي وبصمتها العالمية، بل نتعداها للتعريف بإبداعاتنا التي مجدت هذه الثورة ورجالاتها.

الهوامش:

(١). عبد الله حمادي : أصوات من الأدب الجزائري الحديث، ص١٢، ينظر: محمد حسين محمود، شعرنة الموقف الثوري رفض المفروض السلطوي، مجلة كركوك للدراسات الانسانية، العدد٢، ٢٠١٤، ص ٤٥.

(٢)المرجع السابق، ص١٨.

(٣). المرجع نفسه، ص٣٣.

(٤). عبد الله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص ٥٦.

(٥) . المرجع نفسه، ص٣٥.

(٦). للمزيد من الشواهد والأبيات انظر: المرجع نفسه، ص٥٧١ وما بعدها.

(٧). محمد الطمار: مع شعراء المدرسة الحرّة بالجزائر، ص٢٢.

(٨) . عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ص٢٨.

(٩). للمزيد راجع: شلتاع عبود شراد . حركة الشعر الحر في الجزائر، ص٦٦ وما بعدها.

(١٠). محمد بوشحيط : الكتابة لحظة وعي (مقالات نقدية)، ص٣٨.

(١١). شريبط أحمد شريبط: دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، ص٩٦، ٩٧.

(١٢). أبو القاسم خمار: إرهاصات سرابية من زمن الاحتراق، ص ٧١، ٧٢.

(١٣). عبود شراد شلتاع: حركة الشعر الحر في الجزائر، ص٧٥.

(١٤). مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (١٩٥٤. ١٩٦٢)، ص ٦٧، ٦٨.

(١٥). مصطفى بن رحمون: الديوان، ص١٠١.

(١٦). المصدر السابق ، ص١٥٧.

(١٧). محمد الطاهر يحياوي: أحاديث في الأدب والنقد، ص٨٢ .

(١٨). مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص٤٢.

(١٩). المصدر نفسه ، ص ٥٣، ٥٤.

(٢٠). أبو الحسن علي بن صالح : شعراء الجزائر (ديوان)، ص ٩٣، ٩٤.

(٢١). المصدر السابق ، ص ٩٤.

(٢٢). محمد زغينة: شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص ٥٩.

(٢٣). عبد الله شريط: الرماد، ص ٥٣.

(٢٤). أحمد سحنون: الديوان، ص١٢٥.

(٢٥). المصدر نفسه ، ص ١٠١، ١٠٢.

(٢٦). شريبط أحمد شريبط: دراسات ومقالات في الأدب الجزائري ، ص٩٨.

(٢٧). أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر، ص ٢٣٣.

(٢٨). المصدر نفسه ، ص٢٤٣.

(٢٩). أحمد رحماني : لغة القوة في شعر مفدي زكريا، ص١٧.

(٣٠). محمد بوشحيط : الكتابة لحظة وعي (مقالات نقدية)، ص ٣٠.

(٣١). محمد ناصر : تطور الرمز في الشعر الجزائري، ص ١٦١.

(٣٢). محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (١٩٢٥. ١٩٧٦)، ج٢، ص٢٧١.

(٣٣). محمد العيد آل خليفة : الديوان، ص ٤٣٦.

(٣٤). محمد بوشحيط : الكتابة لحظة وعي (مقالات نقدية)، ص٣٤.

(٣٥). للمزيد انظر: عبد الله ركيبي : الشعرالديني الجزائري الحديث ، ص٤١٧ وما بعدها.

(٣٦). محمد الأخضر السائحي: بكاء بلا دموع، ص٤٧.

(٣٧). عبد الله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص ٦٤٦.

(٣٨). للمزيد انظر المرجع نفسه ، ص٦٥٠ وما بعدها .

(٣٩). للمزيد عن الرمز الذي يتحدث عنه عبد الله ركيبي انظر: عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ص ٦٤٧ وما بعدها.

قائمة المصادر والمرجع:

١-أبو الحسن علي بن صالح : شعراء الجزائر (ديوان). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤.

٢-أبو القاسم خمار: إرهاصات سرابية من زمن الاحتراق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر١٩٨٦.

٣-أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر١٩٨٥.

٤-أحمد رحماني : لغة القوة في شعر مفدي زكريا، مجلة الضاد ، يصدرها معهد اللغة والأدب . جامعة قسنطينة، العدد ٦ ، ٧ ، ١٩٨٣ م .

٥-أحمد سحنون : الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٥.

٦-شريبط أحمد شريبط: دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث ، وحدة الرغاية الجزائر ٢٠٠٣.

٧-شلتاع عبود شراد . حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥ ٨- محمد بوشحيط : الكتابة لحظة وعي (مقالات نقدية)، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (د.ت).

٩-عبد الله حمادي : أصوات من الأدب الجزائري الحديث، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠0. ٢٠٠١.

١٠-عبد الله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١.

١١-عبد الله شريط: الرماد ، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر (د.ت).

١٢-محمد الأخضر السائحي: بكاء بلا دموع . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٨٠ .

١٣-محمد الطاهر يحياوي : أحاديث في الأدب والنقد، شركة الشهاب الجزائر ١٩٩٠.
١٤-محمد الطمار: مع شعراء المدرسة الحرّة بالجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر٢٠٠٥.
١٥-محمد العيد آل خليفة : الديوان ، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، ١٩٦٧.
١٦-محمد زغينة: شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الهدى، الجزائر ٢٠٠٥.
١٧-محمد ناصر : تطور الرمز في الشعر الجزائري، مجلة الثقافة، العدد ٩٤، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر العدد ٩٤ ، ١٩٨٦.
١٨-محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (١٩٢٥. ١٩٧٦)، ج٢ ، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، ط١، (د.ت).
١٩-مصطفى بن رحمون : الديوان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر١٩٨٠ .
٢٠-مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (١٩٥٤. ١٩٦٢). دراسة موضوعية فنية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٩٨.
٢١-مفدي زكريا: اللهب المقدس ، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، (د.ت).